

التحرير والتنوير

والوجه عندي أن لكون جملة (ومن نعمه) عطفًا على جملة (ولو نشاء لمسخاهم على مكانتهم) فهي جملة شرطية عطفت على جملة شرطية فالمعطوف عليها جملة شرط امتناعي والمعطوف عليها جملة شرط امتناعي والمعطوفة جملة شرط تعليلي والجملة الأولى أفادت إمهالهم والإملاء لهم والجملة المعطوفة أفادت إنذارهم بعاقبة غير محمودة ووعيدهم بحلولها بهم أي إن كنا لم نمسخهم ولم نطمس على عيونهم فقد أبقيناهم ليكونوا مغلوبين أدلة فمعنى (ومن نعمه) من نعمه منهم .

فالتعمير بمعنى الإبقاء أي من نبقه منهم ولا نستأصله منهم أي من المشركين فجعله بين الأمم دليلاً فالتعمير المراد هنا كالتعمير الذي في قوله تعالى (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) بأن معناها : ألم نبقكم مدة من الحياة تكفي المتأمل وهو المقدر بقوله (ما يتذكر فيه من تذكر) .

وليس المراد من التعمير فيها طول الحياة وإدراك الهرم كالذي في قولهم : فلان من المعمرين فإن ذلك لم يقع بجميع أهل النار الذين خوطبوا بقوله (أو لم نعمركم) . وقد طويت في الكلام جملة تقديرها : ولو نشاء لأهلكناهم يدل عليها قوله (ومن نعمه) أي نبقه حيا .

والنكس : حقيقة قلب الأعلى أسفل ما يقرب من الأسفل قال تعالى (ناكسوا رؤوسهم) . ويطلق مجازاً على الرجوع من حال حسنة إلى سيئة ولذلك يقال : فلان نكس إذا كان ضعيفاً لا يرجى لنجدة وهو فعل بمعنى مفعول كأنه منكوس في خلائق الرجولة ف (نكسه) مجاز لا محالة إلا أنا نجعله مجازاً في الإذلال بعد العزة وسوء الحالة بعد زهرتها .

عن عائشة حديث وفي . الناس وعلى كثيرا المخلوق على ويطلق خلقه مصدر : والخلق A E الكنسية التي رأتها أم سلمة وأم حبيبة بالحبشة قال النبي A " وأولئك شرار الخلق عند يوم القيامة " أي شرار الناس .

ووقوع حرف (في) هنا يعين أن الخلق هنا مراد به الناس أي تجعله دليلاً في الناس وهو أليق بهذا المعنى دون في خلقته لأن الإنكاس لا يكون في أصل الخلقة إنما يكون في أطوارها وقد فسر بذلك قوله تعالى (وزادكم في الخلق بسطة) أي زادكم قوة وسعة في الأمم أي في الأمم المعاصرة لكم فهو وعيد لهم ووعد للمؤمنين بالنصر على المشركين ووقوعهم تحت نفوذ المسلمين فإن أولئك الذين كانوا رؤوساً للمشركين في الجاهلية صاروا في أسر المسلمين يوم بدر وفي حكمهم يوم الفتح فكانوا يدعون الطلقاء .

وقرأ الجمهور (نكسه) بفتح النون الأولى وسكون النون الثانية وضم الكاف مخففة وهو مضارع نكس المتعدي يقال : نكس رأسه . وقرأه عاصم وحمزة بضم النون الأولى وفتح النون الثانية وكسر الكاف مشددة مضارع نكس المضاعف .

وفرع على الجمل الشرطية الثلاث وما تفرع عليها قوله (أفلا تعقلون) استئنفا إنكاريا لعدم تأملهم في عظيم قدرة الله تعالى الدالة على أنه لو شاء لطمس على أعينهم ولو شاء لمسحهم على مكانتهم وأنه إن لم يفعل ذلك فإنهم لا يسلمون من نصره المسلمين عليهم لأنهم لو قاسوا مقدورات الله تعالى المشاهدة لهم لعلموا أن قدرته على مسحهم فما دونه من إنزال مكروه بهم أيسر من قدرته على إيجاد المخلوقات العظيمة المتقنة وأنه لا حائل بين تعلق قدرته بمسحهم إلا عدم إرادته ذلك لحكمة علمها فإن القدرة إنما تتعلق بالمقدورات على وفق الإرادة .

وقرأ نافع وابن ذكوان عن أبي عامر وأبو جعفر (أفلا تعقلون) بقاء الخطاب وهو خطاب للذين وجه إليهم قوله (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم) الآية . وقرأ الباقر بقاء الغيبة لأن تلك الجمل الشرطية لا تخلوا من مواجهة بالتعريض للمتحدث عنهم فكانوا أحرى أن يعقلوا مغزاها ويتفهموا معناها .

(وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين [69] لتنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين [70])